

مدرسة رواق الحنبليات
قسم الدورات العامة
رواق الحنبليات
1440
رجب
شرح كتيب
الافتقار إلى الله لب العبودية
للشيخ
أحمد الصويان
شرح:
سارة بنت محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة: شرح كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله تعالى فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،

نُكمل علامات الافتقار إلى الله عز وجل:

العلامة الثالثة: مداومة الذكر والاستغفار

إن ذكر الله سبحانه وتعالى نابع من شعور الاحتياج والافتقار إلى الله عز وجل. والذكر ليس مجرد كلمات محددة معروفة نرددها، ولكنه علامة على مدى التفكير والانشغال بالله سبحانه وتعالى في كل فعل. فتجد نفسك طالبًا المعونة والتوفيق من الله قبل أن تبدأ أي عمل، مستشعرًا معنى قوله "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" في صلاتك، وتعرف أنه لولا توفيق الله ومعونته لك ما أديتها. وقد لا يكون الإنسان مستحضرًا لهذه المعاني طوال يومه ولكن يجب أن نحاول حتى نصل.

العبادات تشبه الأعمال اليومية في ممارستها، وأي عمل جديد له لذته وزهوته، وبالتكرار ينطفئ وهجها ويقل حماسنا لها. ولهذا وجب عليك تجديد العبادة بالذكر، وباستحضار القلب، وبالتأمل في المعاني والاستشعار بها. تستشعر بتنزيه الله في ذكر "سبحان الله"، وتقصيرك وأنت تقول "أستغفر الله"، وافتقارك وعجزك وأنت تردد "لا حول ولا قوة إلا بالله"، وبرجائك وأنت تنادي "يا حي يا قيوم رحمتك أستغيث".

العلامة الرابعة: الوجل من عدم قبول العمل

يقول الله تعالى: **"وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ"،** فالوجل هو الخوف مع الرجاء في قبول العمل. فالمسألة تشبه طرفين ووسط؛ الطرف الأول يقطع بالمغفرة ويجزم بالعفو بمجرد الاستغفار، والطرف الثاني يقطع بالعقاب ويقنط من رحمة الله مهما استغفرت وأنبت إلى الله عز وجل، أما الوسط فهؤلاء هم أصحاب القلوب الوجلة الذين يستغفرون بتذلل وخوف من عدم القبول مع الرجاء في كرم الله وعفوه بدون ثقة ولا جزم.

وسنتناول هنا بعض اللمحات الهامة في معاني الوجل:

- **أولًا**: الإنسان يحتاج إلى عبادة الله سبحانه وتعالى حتى تستكين روحه، بل إن هناك مصلحة من عبادتنا لله عز وجل، ليست بالمصالح الدنيوية الباهتة التي تضع العبادة مقابل المصلحة، فنتوقف عن العبادة إن لم نحصل على ما نرجوه من أمور الدنيا. وفي هذا يقول ابن القيم: **"في النفس فاقة**

لا يسدها إلا محبته ودوام ذكره والإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا". وليس من الضروري أن تشعر بلذة الفرائض أو المستحبات وأن تجد لها صداها وراحتها في قلبك حتى تداوم عليها؛ لأنك إن قمت بتركها بالجملة تسوء الأمور وتشعر بنقص ركن هام في اليوم.

- **ثانيًا:** لابد من إدراك أن قبول الأعمال فضل من الله عز وجل، ففي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"لن يُدخل أحد عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".** فلابد ألا تثق في نفسك لا في عملك ولا شطارتك، إنما الثقة في توفيق الله، واليقين في كرمه، والأمل في قبوله. وهنا نتأمل القصة التي رويت عن رسول الله في حق الرجل الذي عبد الله خمسمائة عام، **فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: خرج من عندي خليلي آنفا جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد والذي بعثني بالحق إن لله لعبدًا من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعًا في ثلاثين ذراعًا محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عينا عذبًا بعرض الأصبع تبض بماء عذب فيستنقع في أصل الجبل، وشجرة رمان تخرج كل ليلة رمانة فتغذيه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام إلى صلاته فتمنى من ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجدا وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلا حتى يبعثه وهو ساجد ففعل. فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجده في العلم يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عز وجل فيقول له الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. فيقول: رب بعملي، فيقول: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: بل بعملي. فيقول الله لملائكته: قيسوا بنعمتي عليه وبعمله، فيوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادته خمسمائة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار. قال: فيجر إلى النار فينادي رب برحمتك أدخلني الجنة".** فلابد لنا الأخذ بالأسباب ولكن التوفيق من عند الله عز وجل، وقد لا يأتي التوفيق في الطريق الذي نسعى إليه ونطلبه ليُفتح لنا آخر.

- **ثالثًا:** رب العزة سبحانه وتعالى لا يرضى لنا الكفر ويرضى لنا الخير بالشكر والعبادة، فيقول الله تعالى: **"إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ".** فالله سبحانه وتعالى يريد لنا الخير فأمرنا بفعل الخيرات، ولا بد أن نفكر في تعاملنا مع الله عز وجل بناءً على هذه المُسلمة، فالله سبحانه وتعالى يحب لنا الطاعات ولا يرضى لنا أن نُطرد من رحمته، ولكن قد نُبتلى لنعود إليه وندعوه، حتى لا نغتر بأنفسنا، أو ليدفع شرًا عنا، أو ليُفتح لنا باب أفضل، أو لنُريه من أنفسنا خيرًا، أو لنعرف مقامنا وافتقارنا له سبحانه وتعالى. إن الله عز وجل لا يحتاج إلى عبادتنا فهو الغني ولله المنة جميعًا. نحن من يحتاج إلى الله سبحانه وتعالى في دنيانا وآخرتنا وراحة نفوسنا وسلامة قلوبنا. فالملائكة كانوا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ومع ذلك خلق الله عز وجل الخلق. فلو أراد الله سبحانه وتعالى الخير المحض والطاعة المطلقة لاكتفى بالملائكة. بل الله يعلم ضعفنا ويعلم خطأنا ويرى صراعنا مع أنفسنا ويريد هذا الصراع لينتصر الخير على الشر.

- **رابعًا:** لابد أن يعلم الإنسان بأنه لا يأمن على نفسه الفتنة. فآفة أن يرى الإنسان عمله ويغتر به قد تنتشر في بعض التجمعات الدينية التي تتصف بشكل معين أو لبس معين أو عادات معينة. ولكن لابد أن يعلم الإنسان أن الطاعات متنوعة والإسلام واسع ولم ينحصر في شكل طاعة واحدة محددة. وقد يُقّنط هذا التصنيف وهذه العنصرية الطرف الآخر من رحمة الله حتى يترك العمل بالكلية. فأبواب الدخول إلى الله عز وجل كثيرة ومتنوعة، بالصلاة، والحجاب، والصدقات وغيره. فالإيحاء بأن الدين الإسلامي هو الشكل الذي تمارسه أنت فقط؛ يجعل الناس تشعر بالعجز والخيبة والقنوط إلى أن تترك كل أبواب الخير الأخرى التي تمارسها وتبتعد عن الله عز وجل. فنظرتك لامرأة لا ترتدي الحجاب بأنها مُذنبة؛ لا تعني تفوقك عليها ولا أنك أصبحتِ تأمنين على نفسك الفتنة، وليست مبررًا لشعورك بالزهو والاستعلاء عليها. وما أحوجنا إلى أن نلتجئ ونحتمي في قوة الله عز وجل وتوفيقه إذا كان سيدنا إبراهيم وهو من أولي العزم من الرسل قال: **"وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ"** فكيف لك بعد ذلك أن تتحدث وتقول أنا لا يمكن أن أعبد الأصنام، أنا لا يمكن أن أترك الصلاة، أنا لا يمكن أتخلى عن الحجاب، فمن أين لكِ كل هذه الثقة! فالإنسان لا يأمن نفسه إلا أن يدخل الجنة، والقلوب تتقلب بين يدي الرحمن فلا تأمن على نفسك وتثق في قوتك وقدرتك وإماتتك على الدين، وتنظر للمقصر المخطئ بأنه أبعد ما يكون. وإذا كان هذا لا يجوز مع الأمور المقطوع بتحريمها قولًا واحدًا كترك الصلاة أو الحجاب، فما بالك بالأمور التي بها أكثر من قول كالنمص وجواز الأخذ من الحجاب عند جمهور العلماء، كيف لكِ أن تري نفسك الأورع والأفضل والأتقى في مثل هذه الأمور!

وخلاصة القول: أنه لا ضمانات لمنع الوقوع في الفتن. وإلى أن يرزقنا الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة؛ لا تأمن على نفسك من فتن الدنيا والآخرة، حتى وأنت على باب الجنة إلا أن تدخلها وتستكين بها. وانظر إلى العاصي نظرة المحب الخائف عليه لا نظرة العُجب والفوقية. واجعل انتقادك للخطأ إنما هو رحمة وشفقة ورغبة في أن تأخذ بيدي الناس حتى تجد من يأخذ بيدك. فلا تنظر حولك، بل تفقد قلبك وانشغل بنفسك وعامل الله عز وجل وحده واستزد من الأعمال ولا تنشغل بغيرك.